العلوم العقلية منهج لتأصيل فاعلية الدرس وإعادة تأهيل الطالب في الجامعة

الأستاذ المساعد الدكتور
خميس غربي حسين العجيلي
جامعة تكريت - كلية الآداب

المقدمة

الفكر الإنساني ، عامة ، هو إعمامٌ نظري لتجارب البشرية في جوانب الحياة المختلفة ، وهو مجموعة من الأسس النظرية والمفاهيم والمعاني التي تكمن خلف مظاهر السلوك الإنساني ، والفكر بهذا المعنى هو حصيلة لتجارب مختلفة وكثيرة وممتدة من حيث الزمان وعبر المكان ، وهو في كل حال نتيجة للنظر والتأمل اللذين هما بلا شك نتيجة من نتائج العقل الإنساني ، لذلك كانت العلوم العقلية تشكل المنهج الأساسي والمهم لتأصيل فاعلية الإنسان ودوره في النمو والبناء والتغيير والتطور من أجل رسم خارطة طريق لبناء فكر الإنسان من الجوانب كافة .

وهناك آيات جامعات ، في القرآن الكريم ، تدعو الإنسان إلى النظر في الكون والتفكّر في نسقه وتنظيمه ، وإلى جعل العقل أساساً للحكم والتقدير في عظمة هذا الكون وجلاله ، كما إنها تحث الإنسان على إطلاق تفكيره في السموات والأرض والوجود ، وإلى الماء والأرض والجبال ، وإلى الإنسان كيف خلقه ، وإلى الأنعام والنبات ، قال تعالى : ((وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهار ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون))[1] .

والله يدعو الإنسان إلى التفكير العقلي من أجل الوصول إلى الحقائق الكونية ، في منهج طابعه النظر والتأمل والتفكر والتعقل ، قال تعالى : ((أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت))[٢] .

لقد حمل القرآن الكريم على الغافلين الذين يعطلون عقولهم ولا يتفكرون ، ويغلقون على أنفسهم منافذ المعرفة والنور حتى يصبحوا دون الأنعام[٣] ، يظهر ذلك من قوله تعالى : ((ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون))[٤] .

١- وسواء أنظرنا من ناحية الأفراد أم من ناحية الجماعة ، فهناك فجوة بين مجرد العيش وبين العيش الأمثل ، فلا بد لمن يريد أن يحيا الحياة المثلى أن يعيش قبل كل شيء ، وأن يعيش في ظل مجتمع فالوقت والنشاط اللذان ينفقان في مجرد العيش وكسب القوت ، مأخوذان من الوقت والنشاط اللازمين للأعمال التي لها في ذاتها معنى عقلي . بل أن إنفاق الوقت والنشاط في الناحية الأولى يجعل الإنسان غير صالح لمباشرة الأعمال العقلية ، فالوسائل شيء وما يمكن استخدامه شيء آخر[٥] . إننا نسعى جاهدين من أجل تطوير المجتمع اقتصادياً واجتماعياً ، ونحن إذ نقوم بهذه العملية الجسيمة ، عملية إعادة تشكيل المجتمع ، لا يسعنا أن نتجاهل جانب التنمية الفكرية والعلمية التي محورها العلوم العقلية ، وعلى هذا فنحن فعلاً نحتاج إلى ثورة فكرية ثقافية نغير فيها طريقة التفكير ، كما نحتاج إلى ثورة اقتصادية واجتماعية ، بل لعلنا لا نغالي إذا قلنا ، إن الثورة الأولى تكاد تكون أكثر أهمية وضرورة ، دون إهمال الثانية ، وإننا إذ أردنا لثورتنا الاجتماعية والاقتصادية النجاح لا أن نؤسس للثورة الثقافية أولاً ، لأننا نحتاج إلى تكوين سلم للتفكير العقلي الناضج لدى الطالب الجامعي ، الذي يبنى على التفكير العقلي العلمي المنطقي الذي يبتعد عن الأوهام والمسلمات التقليدية ، من اجل غرس قيم جديدة تتمثل بالتفكير العقلاني الحر القائم على النظر والتمحيص كي يكون هذا الأمر عقيدة للحركة التعليمية في الجامعة ـ الأستاذ والطالب ـ وصولاً إلى بناء المجتمع الأكاديمي الذي يتخذ

من المنهج العقلي أسلوباً للتفكير والعمل القائم على المشاهدة والتجربة والاستدلال العقلي .

والمستقرئ لتاريخ الأمم والشعوب قديماً وحديثاً يدرك بسهولة أن مقاييس التقدم لأي مجتمع بشري ، لم تعتمد في أي وقت من الأوقات على حجم ما تمتلكه هذه الأمم والشعوب من ثروات طبيعية ، أو ما تسخره من طاقات مادية ، بقدر ما تعتمد على حصيلة ما تيسره لها الإمكانيات الفكرية عند أبنائها ، والمتمثلة بالخلق والسلوك ، والعلم والمهارات التي تولدها العقول وتستثيرها الضمائر ، لأن فلسفة التقدم ـ في أي زمان ومكان ـ تعتمد على رصيد الثروة البشرية ونمط تفكيرها ، وكيفية تنميتها للإفادة منها ، بل انه عن طريق الإنسان وحده يمكن تطبيق العلم وتطويع التكنولوجيا ، وصولاً إلى التعاون والتنافس ، وهي العوامل الحاكمة في تقدم الأفراد والأمم والمجتمعات ، والنتيجة أن يعم الخير والسلام والطمأنينة للإنسانية جمعاء .

إن الحضارة الإنسانية هي بلا شك نتيجة للعقل ، أو للتفكير العقلي ، لأن العقل هو رمز للمشاركة والاندماج في الحضارة والتاريخ ، فالعقل هو ثمرة الحضارة وهو الذي أسهم في إنتاج الثقافة ، وهو أفق كل تفكير لكل حضارة ، فبناء نظام العقل هو بناء للمشروع الاجتماعي ذاته ، واستثمار ثقافي وحضاري له حدوده وأبعاده[٦] ، ولذا فإن الصراع ارتبط دائماً بين القديم والحديث ، وفي داخل ذلك معركة تجديد مفهوم العقل[٧] .

إن دراسة العلوم العقلية يعني دراستها بصورة مادية ومعنوية في آن واحد ، ذلك أن ما ابتكره الإنسان من أدوات وما أقامه من صناعات وما طوره من منشآت ، إنما يحدد ذلك ما يحمله من قيم وأفكار ، وما يكون عليه الناس الذين يستخدمونها من اتجاهات ، أنها بتعبير أدق نتيجة لعقل الإنسان وفكره ، وما صنعته يده .

ومن الجدير بالقول أن من أهم خصائص العلم هو التفكير العقلي المنتج ، وأن تقدم المعرفة العلمية يعتمد بالدرجة الأولى الوعي العلمي الذي يأتي نتيجة النظر والتأمل والتفكير[٨] ، وعند ذلك ندرك الحدود المقيدة للبحث العلمي وفرضياته ونصل إلى المستوى الذي نستطيع ، من خلاله ، حل المعضلات والمشكلات العلمية .

ومن نافلة القول أن التفكير العقلي ، في أي عصر هو على الدوام أكثر تعقيداً وتنوعاً مما يبدو للوهلة الأولى ، لأن ذلك يعني التأمل المثالي أو المجرد وتكوين النظريات ، وهو كذلك منظومة من الأفكار تُعنى بظاهر الأشياء وباطنها ، ولاسيما تلك التي تتعلق بالظواهر الطبيعية والموضوعات العلمية الصرفة ، وهو أسلوب التفكير الذي يميز الإنسان العقلاني من غيره(٩) .

إن سيادة أية طريقة عقلية علمية في التفكير ، مرهونة بالظروف التي تحيط بدائرة البحث العلمي ، وحجم المتغيرات التي أصابت بنيته الفكرية ، والحاجة لبناء طريقة تتخذ على عاتقها مهمة بناء نظام عقلي علمي(١٠) . وعلى هذا المنوال فإن مكانة الدراسات العقلية في الجامعة تتناسب مع المقاييس الأكاديمية للجامعة ومع عمق الدراسة العلمية فيها ، والنقد الموضوعي للمناهج باستمرار حتى تتوافق مع التطور العلمي والتكنولوجي الذي يشمل العالم المتطور ، فضلاً عن المناظرة العلمية التي تطبق على كل ميادين التعليم ، باستخدام أساليب عقلانية ، لأن المنهج العلمي يقتضي بالاستدلال عن طريق العقل المجرد وقيامه بذاته من أجل إعطاء العقل السيادة على غيره من العوامل التي تساعد على الوصول إلى الحقيقة العلمية ، والدراسة في الجامعة تحتاج دائماً إلى روافد جديدة تغذيها وتنشطها ، وتجدد من حيويتها ، لكي تقوم بوظيفتها في إحداث نقلة فكرية في التفكير العقلي لدى طالب الجامعة ، وهذا هو الهدف الأسمى المتوخى من تأصيل العلوم العقلية في الدرس من أجل إعادة تأهيل الطالب ليأخذ دوره قي بناء المجتمع على وفق المعايير والأسس العلمية .

وكل هذا يبين لنا الارتباط الوثيق بين العلوم العقلية والتعليم الجامعي ، ويبرز كذلك أمرا مهما وهو أن التعليم باعتباره وسيلة انتقال الثقافة يعد عاملاً فعالاً ومهماً في تكامل الوظيفة التي تقوم بها الجامعة ليصبح التعليم عقلياً أخلاقياً يعد الطالب من أجل الإسهام في بناء المجتمع وفق المنظور العقلي الذي يجعل من التفكير العلمي على هدى وقواعد التفكير السليم الذي يضع الأمور في نصابها بعيداً عن الانغلاق والتحجر والنظرة الأحادية للأشياء التي تفضي إلى جعل الإنسان مجرّداً عن التفكير العقلاني ، بل يصبح مجرد آلة لا روح فيها .

ولأهمية التفكير العقلي ، نقل لنا الدكتور سعيد إسماعيل علي عن الفيلسوف الألماني (فردريك نيتشة) عندما خاطب الجماهير في ألمانيا بعد هزيمتها أمام جيوش نابليون بونابرت في معركة (يينا) سنة ١٨٠٦م ، داعياً إياهم إلى أن يغيروا من نمط التفكير والثقافة السائدة آنذاك حتى يتمكنوا من استعادة بلادهم ممن اغتصبوها[١١] ، مبيناً أن ذلك لا يمكن استيراده من الخارج ، بل يأتي من الداخل بجهود الألمان ، أي بتغيير أسلوب التفكير ، والاعتماد على العقل بصورة رئيسة في مواجهة المعضلات والمشاكلات التي أدت بالنتيجة إلى هزيمة ألمانيا[١٢] ، وهذا لا يتم إلا بإصلاح عميق وصهر تام للطاقات الروحية ، وتلك سبيل التربية والتعليم التي تهدف إلى خلق جيل يفكر بعقلانية ويجعل من العقل إمامه في الإجابة على جميع الأسئلة التي تتطلب حلولاً منطقية .

من هنا يتضح حقاً أننا نحتاج إلى مزيد من إشغال العقل وتعقل الأشياء والتفلسف في شتى نواحي الحياة ، ولاسيما في الدرس الجامعي من أجل إعادة تأهيل الطالب ليكون مسلحاً بالأفكار العقلانية التي تعينه على مواجهة الحياة الفكرية حتى يكون عنصراً مؤهلاً للتأثير في أسلوب تفكير المجتمع الذي ينتمي إليه . ومن ثم نهيئ الطالب كي ينظر إلى المشكلات نظرةً عقلانية واسعة شاملة بعيداً عن سيادة الأهواء والتطرف .

ولكي نؤسس لهذه الأفكار والطموحات والأهداف نحتاج أولاً إلى الأستاذ الجامعي المتنور الذي يضع (العقل) والتفكير العقلاني المتوازن ضمن أولويات الدرس ، وهنا يكون قدوة ومثلاً أعلى للطلاب يأخذون منه ويتأثرون فيه ، أما إذا كان الأستاذ لا يؤمن بسيادة التفكير العقلي بل ربما يؤمن بالخرافات والأوهام ، فإن ذلك سينعكس على التفكير السليم عند الطالب الجامعي ، وهنا يصبح الأستاذ واعظاً اجتماعياً أو موظف دعاية انجرف وراء جانب آخر من جوانب الصراع الفكري الاجتماعي .

والفكر عامّةً هو إعمام نظري لتجارب الإنسانية الجزئية والكلية ، أو بمعنى آخر هو مجموعة الأسس النظرية والمفاهيم والمعاني التي تكمن خلف مظاهر السلوك الإنساني[١٣] ، والفكر بهذه الإحاطة الشاملة هو تعبير عن واقع اجتماعي ، ففي كل وضع اجتماعي فكرٌ عقلاني يلائم هذا الواقع ، ويلائم المرحلة التي يوجد فيها هذا الوضع ، وهو كذلك أداة

للتغير الاجتماعي ، إنه عملية إنسانية لا بد من أن يقوم بها الإنسان ليبدل وضعاً بوضع ، ولو كنا دائماً في ظروف تعجبنا لما كان للفكر دور جوهري يؤديه[١٤] .

إن القارئ لهذه الدراسة يلحظ أننا خلال مناقشتنا موضوع البحث ، كنا نؤكد اتجاهين مترابطين هما ، التفكير العقلي ، والتنظير الفلسفي ، لأنهما يعدان مصطلحين أحدهما يكمل الآخر ، لأن الفلسفة هي من نتاج العقل والتفكير العقلي والعقلانية هما الوجه التنظيري للفلسفة ، وسوف يرى أيضاً أننا لم نقف على الحياد تجاه التفكير العقلي والآخر القائم على الغيبيات والأحكام الجاهزة والطلاسم ، في محاولة لتحييد العقل .

إن دراسة كيفية تأصيل العلوم العقلية من أجل إعادة تأهيل الطالب الجامعي موضوع واسع وشامل وذو معانٍ كثيرة ، ومن الصعب الإحاطة به من الجوانب كافة في بحث مثل الذي نتصدى له ، وسنكتفي هنا بتناول العنوانات الرئيسة فيه ، آملين أن تتاح لنا الفرصة بصورة أشمل لاستكمال ما قد يُكمل من أوجه النقص ، وعلى هذا سوف نقسم البحث إلى عنوانات هي الآتي :

١ـ الإطار العام للتفكير العقلي

التفكير العقلي من خواص الإنسان وهو مرتبط به وأساس المعارف عنده ، وهو ظاهرة ثقافية ذات دلائل علمية وتربوية واجتماعية ، وهو كذلك نشاط فكري يزاوله الإنسان من سائر الكائنات الحية استجابة لحاجات التعلم من أجل إيجاد تكامل في العلم وتوازن في السلوك ، لأن عملية التعلم تحتاج إلى سلم للتفكير العلمي حتى يتم الكشف عن القوانين التي تتحكم بمجرى الحياة على الأرض ، ولقد كرم الله سبحانه وتعالى الإنسان على سائر المخلوقات بالعقل ، وهذا ما ذكره الله تعالى في قوله : ((ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا))[١٥] .

والعقل هو مصدر المعرفة التي نستمد منها أحكاماً علمية وثابتة ومتسقة بعضها مع بعض ، فمثلاً نجد أن الحقائق الرياضية والمنطقية هي من أنواع المعرفة العقلية ، التي تحتكم إلى العقل ، وتتخذ من الأمثلة الواقعية دليلاً لصحتها[١٦] ، وعلى هذا يمكن القول أن العقل هو العامل المهم في المعرفة ، والذين يتبنون هذا القول يسمون (بالعقليين) إنهم يعترفون بما

تقدمه الحواس للمعرفة بشكل حقائق مجردة ، ولكنهم يعتقدون أن الفكر يقوم بتفسير وتنظيم هذه المعارف ، في ما يمكن أن نطلق عليه اسم المعرفة العقلية[١٧] .

إن محاولة العقل صياغة بعض النظريات والأنظمة الفكرية تعكس موقف الإنسان من العالم المجرد والمحسوس يشير إلى درجة التعقيد التي وصل إليها جهازه المعرفي ، والعلم ككل جهد معرفي ، عقلي ، ينطوي على استجابة لعدة نوازع مركبة في طبيعة الإنسان وحاجات المجتمع[١٨] ، يظهر ذلك من دراسة تاريخ العلم ، إذ يتبين لنا الترابط الوثيق بين روعة الاكتشاف والفهم التي يستشعرها الدارس ، حتى يستوي ، في نشوته ، مع عباقرة الفن المبدعين الذين قدموا للبشرية عصارة أذهانهم وجهودهم الفكرية المضنية من اجل بناء مجتمع يؤمن بسيادة العقل والتفكير العقلاني الحر[١٩] .

تظهر أهمية العقل والتفكير العقلي إلى حد دفع بعض الفلاسفة المسلمين إلى القول : ((ان الباري عز أسمه إنما أعطانا العقل وحبانا به لننال ونبلغ به المنافع العاجلة والآجلة غاية ما في جوهر مثلنا نيله وبلوغه ، وأنه أعظم نعم الله عندنا وأنفع الأشياء لنا))[٢٠] ، ويتجلى مفهوم العقل وأهميته عند الرازي من خلال الإشارة الواردة في كتابه الطب الروحاني بأن الله سبحانه وتعالى ميزنا من الحيوان وفضلنا عليه بالعقل ، وبالعقل ملكنا الأرض وذللناها وسسناها واستخدمناها من أجل منافعها[٢١] .

وإذا كان هذا مقدار العقل وأهميته وجلاله ، وجب علينا أن لا نحطه عن رتبته، ولا نجعله وهو الحاكم محكوماً عليه ، ولا هو المتبوع تابعاً ، بل نرجع في الأمور إليه ، ونعتبرها به ، ونعتمد فيها عليه ، ولا نسلط عليه الهوى الذي هو آفته والحائد به عن سنته ومحجته[٢٢] .

وفي القرآن الكريم آيات محكمات تدعو الإنسان إلى النظر في الكون والتدبر والتفكير في نظامه ونسقه ، بأن يجعل الإنسان العقل هادياً له في التأمل والتفكير ، كما تحث الإنسان على إطلاق تفكيره في السموات والأرض والوجود والأرض والجبال والإنسان كيف خلق ، وهي في مجملها دعوة لإطلاق الفكر من عقاله وصولاً إلى إدراك عظمة الخالق بالعقل ، قال تعالى : ((وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل

فيها زوجين أثنين ، يغشى الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون))[٢٣] .

ومن المناسب القول أن العقل يجعل الإنسان مقبلاً على شأنه ، عارفاً بزمانه ، وحافظاً للسانه ، وهو أشرف الأحساب لا يتم حسن الخلق إلا به ، ولا يكون السؤدد إلا عليه[٢٤] . من هنا نقل لنا الدكتور قدري حافظ طوقان مقدار تمجيد العرب للعقل حداً دفعهم إلى القول : ((أن الله عقل وهو مصدر لجميع العقول))[٢٥] .

لقد برز الاتجاه العقلي عند المعتزلة في تحديد العلاقة بين الله والإنسان والعالم ، وبهذا يعد المعتزلة أول من قدم الحلول العقلية لهذه القضية في الفكر الإسلامي[٢٦] . والعقل البشري ملكة مهيأة لتقبل العلوم سواء كانت مادية أو مجردة[٢٧] .

لقد ذهب المعتزلة إلى القول بسلطان العقل ، فأطلقوا له العنان وجعلوه حكماً في كل شيء وبحثوا في ضوئه جميع الموضوعات ، دينية كانت أم علمية ، فالعقل عندهم هو المرجع وهو الأساس ، فبحكم العقل يقررون ، ويأخذون بالنقل إذا ساير العقل ويرمونه إذا خالفه وناقضه[٢٨] . وقد نقل لنا الدكتور قدري حافظ طوقان عن الزمخشري وهو من أئمة المعتزلة قوله في كتاب الكشاف ، وهو تفسير للقرآن الكريم ((أن العقل هو المدرك للمعرفة الدينية والمرشد إلى الحق ، وإن الأنبياء استدلوا على صدق رسالاتهم بالعقل ، وأن الله أرشدهم بأسانيد من العقل يستدلون بها ، لأن العقل قبل الرسل كان قائماً بما نصه الله من الأدلة))[٢٩] .

والعقل هو الذي يجعل المقولات معقولة وقابلة للتصديق[٣٠] وهنا تبقى الحرية في الاختيار عند الإنسان ، يظهر ذلك من قول الفارابي : ((وللإنسان إرادة حرة بجانب العقل وظيفتها تحصيل السعادة له بواسطة أعماله العاقلة))[٣١] .

وهكذا كان (إخوان الصفا)[٣٢] ، يعتمدون في مذاكرتهم على النظر والبحث ، على وضع العقل موضعاً رئيساً في المحاورات والمناظرات والتفسير وطلبوا من أتباعهم أن لا يعادوا علماً من العلوم ، أو مذهباً من المذاهب ، وأن لا يتعصبوا لفرقة من الفرق[٣٣] ،

ونظروا إلى القوى المفكرة على أنها أفضل قوى النفس لأنها تؤدي إلى المعرفة ، والمعرفة هي لباب النفس الإنسانية ، وبحثوا في العقل وعنوا به وقالوا إن العقل أفضل من النفس ، وذهبوا إلى أكثر من هذا ، وقالوا ، إن العقل أشرف الموجودات وأفضلها بعد الله عز وجل، بل بالعقل يمكن إدراك الله جل جلاله[٣٤] .

ومن كل ما تقدم يظهر لنا أهمية التفكير العقلي بصورة عامة من أجل اغناء الحياة بالعقلانية ، ومن هنا يمكن القول أن الجامعة هي بحاجة إلى رسم خارطة طريق للعلوم العقلية من أجل إعادة تأهيل الطالب وتدريبه على التفكير العقلي .

٢ـ تأصيل العلوم العقلية في الدرس الجامعي

الجامعة مؤسسة علمية اجتماعية غايتها رفع مستوى المجتمع من الجوانب كافةً ومنها رسم خارطة طريق لأسلوب التفكير عند أفراد المجتمع من خلال تخريج دفعات من الطلاب المهيئين للتأثير فيه وإعادة صياغة التفكير عند أبنائه . لأن تاريخ أي شعب من الشعوب إنما هو تاريخ لمؤسساته التعليمية ، وأن تاريخ مدنيته ، كما تبدو في إبداعات أبنائه العقلية وأنماط حياتهم الأخلاقية والدينية[٣٥] .

تعد الجامعة وهي في أعلى درجات السلم التعليمي من أهم المؤسسات التربوية في المجتمع ، يمكنها أن تقود حركة الفكر والتقدم والتنمية ، ورسالة الجامعة في عالمنا المعاصر هي رسالة الإنسان الذي كلفه الله سبحانه وتعالى ليكون خليفته على هذه الأرض تبياناً لقوله تعالى : ((وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة))[٣٦] ، وهذه الخلافة تتطلب من الإنسان أن يسعى وراء العلم والمعرفة ويستكشف أسرار الكون والطبيعة ويقوم باستثمار الطاقات التي سخرها الله تعالى له كي ينهض بعمارة الأرض ويشيد الحضارة الإنسانية بأبعادها كافة[٣٧] ، ومن ثم يضع الموازين القسط ويدعم القيم الروحية ويعمق مفاهيمها ، ويبثها على أوسع نطاق ، ويصونها من كل عبث وضلال ويرفع كلمة الحق والرشاد ، ويقضي على الباطل والفساد ، ويبني العقل والضمير ، ويصقل المواهب والقدرات ، ويتحقق ذلك كله من خلال التعاون المثمر والبناء بينه وبين بني جنسه في جو من الإخاء والمحبة والصدق[٣٨] .

إن ميدان التدريس الجامعي هو أحوج ما يكون إلى إشغال العقل وإلى مزيد من التفكير العقلاني ـ أو عقلنة التفكير عند الأستاذ والطالب الجامعي ـ لأن التعليم الجامعي قائم عليهما، وليس بالإمكان بناء العقلية العلمية لدى الطالب دون مراعاة التفكير العقلي عند الأستاذ ، من هنا يمكن بناء إستراتيجية تعليمية تهدف إلى معالجة وتشخيص مناهج التدريس النمطية في الجامعات ، لكي يتخلص من الإعمام المسرف والمفاهيم السطحية والتيسير المخل في كثير من المؤلفات التي تدرس في الجامعة .

إن مكانة الدراسة الجامعية وأهميتها تتناسب مع المقاييس الأكاديمية الصحيحة للجامعة ، وهنا يجب التركيز على عمق الدراسة العلمية فيها ، ويأتي دور العلوم العقلية أو بتعبير أدق عقلنة الدراسة الجامعية بأقسامها وصنوفها كافة ليصبح تعليماً عقلياً أخلاقياً ، وذلك بإلزام الأستاذ والطالب بالاعتماد على التفكير المنطقي وتقديمه على النقل في التصدي للمشكلات والمعضلات التي تواجههما في الحياة العلمية والعملية وحتى الجوانب الاجتماعية ، من أجل إعداد الطالب ليكون باحثاً علمياً ، وتهيئته للولوج في المجتمع ، وبذلك يتم تأصيل العلوم العقلية منهجاً في الدراسة الجامعية ، من اجل إعادة تأهيل الطالب على هدى من العقل حتى يكتسب فيها العلوم والمهارات وفق الشروط التي تجعل منه إنسانا مؤهلاً للمشاركة في تطوير وبناء المجتمع الصالح .

إذن ميدان التعليم في الجامعة يحتاج إلى نظرة عقلية ـ فلسفية تنسق الجهود المتناثرة والمتعارضة أحياناً ، وتوجه الدرس والبحث العلمي توجيهاً صحيحاً ليكون أكثر واقعية ووظيفية ، وعلى هذا يمكن القول أن التدريس في الجامعة أياً كان اختصاصه بحاجة إلى مزيد من العقلانية والتفلسف ، ولا شك في أن هذه الحاجة أساسية كي يناقش المنهج العلمي بروح من التفكير العقلي ، ولأن الهدف من تدريس العلوم العقلية في الجامعات هو إحداث النمو الشامل عند الطالب من النواحي العقلية والمهارية والشخصية والروحية والاجتماعية[٣٩] ، وتنمية التفكير العلمي المستند إلى العقل من اجل إحداث نقلة نوعية شاملة لديه ، وصولاً إلى خلق جيل من المتعلمين وإعادة تأهيلهم لتقبل التطورات العلمية التي تحدث في العالم .

ومما هو معلوم أن المنهج التربوي والتعليمي في الجامعة وفي أي مجتمع من المجتمعات ، ما هو إلا وجه للحركة الاجتماعية فيه ، كما أن وراءه اتجاهاً فكرياً معيناً ، اجتماعياً وتربوياً ، وهذا الفكر عادة ما يتضمن طبيعة المجتمع وثقافته ، وطبيعة البشر فيه ، وصلتهم ببعضهم ، وصلتهم بغيرهم ، وثراء الفكر عندهم ، علمياً وتربوياً ، وبقدر عقلانيته وعلميته يكون أثره في الحركة العلمية والفكرية والسلوكية للمجتمع[٤٠] .

وإذا كانت الدراسة الجامعية قد شكلت شخصية الطالب العقلية والعلمية والنفسية من خلال أسلوب التعليم والتدريس السائد في الجامعة ، والذي تميزه عقلنة الأشياء بعيداً الأيمان الساذج بكل ما يقرؤه أو يسمعه ولا يشغل النظر والتأمل والتفكير به ، ومن هنا يمكن تغيير طريقة تفكيره وفق النظرة العقلية للأشياء وللحياة بصورة أشمل ، بعيداً عن الانغلاق والتحجر والجمود الذي لا يفضي إلا إلى قتل روح الإبداع ، لأن الفكر التعليمي يحتاج ، باستمرار ، إلى روافد جديدة تغذيه وتنشطه وتجدد حيويته على أسس عقلية وقواعد منطقية .

مما لا شك فيه أن الدراسة الجامعية تؤدي دوراً أساسياً في تكوين فكر الطالب وتنمية قدراته العقلية وذلك عن طريق تسليحه بالعلوم والمعارف والمهارات ، وتنمية قدراته العقلية، وفي التعليم الجامعي تكون المهمة مزدوجة ، فعلاوة على بناء سلم عقلي علمي ومنطقي للتفكير عند الطالب ، تقع على الجامعة مهمة الكشف عن القوى المعرفية الكامنة عند الطالب ، وهذا بطبيعة الحال لا يتم إلا إذا جعلنا التدريس قائماً على محاكاة العقول والابتعاد عن الأسلوب الإلقائي والحفظ لمجرد الحصول على درجة النجاح .

لقد أصبح التعليم محركاً مهماً للتقدم في مجالات الحياة كافة ، لأنه يهيئ الفرد للإنتاج ويزجه في مجال خلق الخبرات المادية والروحية ، ولذا كانت الجامعة وما تزال مرتبطة بالمجتمع ، وكان هدفها تكوين إنسان ذلك المجتمع[٤١] .

ومما لا ريب فيه أن العلوم لا تنشئها الأمة دفعة واحدة ، بل تأخذ ما أنجزه السلف فتدرسه ، وتهضمه ، وتتمثله ، وتتناوله بالفحص والنقد وتوضيح ما فيه من إبهام وغموض، فتصحح ما تكشفه من خطأ ، وتوضح ما فيه من إبهام ، وتفصل ما فيه من

إجمال ، وتجمل ما فيه من فوضى تأليفية ، وتجمع الموضوعات المبعثرة في أبواب يضم كل منها البحوث المترابطة ، وأخيرا تضيف إليه ثمرة اكتشافاتها الأصلية[٤٢] .

ومن هذا المنطلق أصبح التعليم الجامعي وفق المنهج العقلي ضرورة حياتية للمجتمع ، نتيجة لما تشكله العلوم العقلية من مكانة بارزة في صقل فكر الطالب الجامعي وتكوين شخصيته العلمية التي تجعل العقل مصدراً للتفكير ، وصولاً إلى عقلنة الأفكار والرؤى لكل جوانب الحياة ، وهذا بطبيعة الحال سوف يخلق أجيالاً تؤمن بأهمية العلوم العقلية في تأصيل الدرس بغية خلق ثورة في التفكير عند الطالب الجامعي .

إن تأصيل فاعلية الدرس وإعادة بناء التفكير لدى الطالب تتطلب ضبط الحد الأدنى من المعارف اللازمة لتهيئة الجيل الجديد للمستقبل الذي ينتظره ، كما تحتم إعادة النظر بأساليب تقديم محتويات منهج الدرس الجامعي بما يتوافق مع عقلنة الأسلوب التعليمي ، والعمل على تسهيل استيعابها ، والإحاطة بها[٤٣]، والاستفادة منها في الحياة العملية وذلك عن طريق اعتماد العلوم العقلية على أفضل وجه ممكن .

ومن المعلوم أن الجامعة تؤدي دوراً أساسيا في هذا المجال لأنها المؤسسة الوحيدة في بلادنا التي ما زالت يقع على عاتقها تنفيذ تلك المناهج والخطط ، ولكن واقع الحال يؤشر حالة سلبية في هذا الأمر ، إذ مازال ينظر إلى العلوم العقلية دروساً ثانوية ، وهي تدرّس معلومات قديمة وضعيفة الصلة بالحياة ، وفي مثل هذه الظروف يبقى التعليم الجامعي عاجزاً عن تطوير الطالب من خلال تأصيل العلوم العقلية في ذهنه ، مما يؤدي بالنتيجة تخرج أعداد من الطلبة ليست بالمستوى المطلوب الذي يواكب متغيرات الحياة وحاجاتها الفكرية والعلمية

لعل من معاد القول أن التعليم الجامعي عملية لا تتم في فراغ ولا يمكن أن تعيش بمعزل عن مشكلات واحتياجات وتطلعات الأفراد والمجتمعات ، وهي عملية ديناميكية لها قوة اجتماعية قادرة دائماً على إحداث تغيرات بعيدة المدى في البناء النفسي والاجتماعي والحضاري للمجتمع[٤٤] .

ومن هنا يمكن القول أن الحياة العلمية دائمة التغيير عصراً بعد عصر ، وكلما تطورت التعليم تطورت الحياة بمقدار تطوره ، وهناك شبه اتفاق على ان التعليم الجامعي من شانه أن

يزيد الإنسان معرفة بنفسه وبالعالم المحيط به ، فلابد ، إذن ، لذلك التعليم ، من أن يكون على صلة بحقيقة الإنسان وطبيعة العالم على حسب تطور العصر[٤٥] .

وحتى تساير الجامعة التطور العلمي السريع الذي يحدث في العالم ، وجب تطوير مناهجها لتتوافق مع هذا التطور ، وكذلك تطوير مهارات الأستاذ الجامعي العقلية والتربوية، لأن المناهج الجامعية ليست المواد الداخلة في المنهج الدراسي ، بل هي ما يحصل عليه الطالب من الأستاذ ومن البيئة الجامعية[٤٦] ، وهذا الأمر من الأولويات التي يجب على الجامعة أن تأخذ بها ضمن اهتمامها إذا أرادت لطلابها التطور العقلي من أجل مسايرة التطور في مجال التعليم وتأصيل الدرس لدى الطالب في الجامعة .

إن انفصال الجامعة عن التطور في المناهج تحت ضغط عوامل الجمود الفكري والاجتماعي ، يؤدي إلى تأخر الجامعة عن التطور العالمي ولاسيما في الجوانب العلمية ، لأن الجامعة والحال كذلك تصبح عاجزة على أن تدفع بطلابها إلى نيل العلوم والمعارف التي تتماشى مع تطور العصر ، وتصبح كذلك عاجزة عن إعادة تأهيل الطالب الجامعي .

إذن ميدان التعليم في الجامعة يحتاج إلى نظرة عقلية ـ فلسفية ـ ثقافية تنسق المجهود وتوجه الدرس والبحث العلمي توجيهاً يجعلهما أكثر واقعية ووظيفة ، وعلى هذا المنوال، نقول إن التدريسي في الجامعة أياً كان تخصصُه ، وأياً كان اتجاهه ، بحاجة إلى مزيد من العقلانية والتفلسف ، ولا شك أن هذه الحاجة أساسية كي ينظر مادته العلمية والبحثية ، ويناقش آراءه وافتراضاته بروح من التفكير العقلي .

من هنا يمكن القول أن إعادة تأهيل وعقلنة التفكير لدى الطالب الجامعي تشكل أهمية كبيرة ولاسيما ، إذا كان الدرس فيه مبنياً على المنهج العلمي الصحيح ، في استخدام العقل للدراسة والتحليل والاستنباط والاستنتاج وذلك يعد محركاً مهماً لنمو وتطور وتقدم المجتمع فهو يهيئ الفرد فكرياً ونفسياً في مجال خلق الخبرات المادية والروحية ، لأن هدفه الرئيس هو تكوين إنسان ذلك المجتمع ذي التفكير العقلاني الذي يؤمن بالعلم ويرفض تحديد العقل ، ويستخدم التفكير العقلاني في الوصول إلى حلٍ للمشكلات التي تواجه المجتمع وتجاوزها .

من كل هذا يتبين لنا الارتباط الوثيق بين الجامعة والمجتمع من خلال إعادة تأهيل الطالب الجامعي وتأصيل العلوم العقلية عنده ، وهذا يعد عاملاً فعالاً في تطور الثقافة العقلية ونموها وتكاملها ، في محاولة لصبغ التعليم بلونها وقيمها واتجاهاتها وأساليبها ليصبح تعليماً عقلياً أخلاقياً[٤٧] ، كي يعد الطالب الجامعي لدخول المجتمع الذي يضطرب بألوان الحياة ، وبتعبير أدق إذا لم يكن تدريس العلوم والمعارف في الجامعة على هدى من العقل يكتسب فيها المتلقي العلوم والمهارات التي تؤهّله في معالجة المواقف المختلفة التي تواجهه[٤٨] ، فإن التعليم هنا يبقى ناقصاً وهذا بطبيعة الحال لا يسهم في تكوين شخصية الطالب العلمية التي يهتدي بها لرسم مجرى تفكيره وحياته وسلوكياته في المجتمع الذي هو جزء منه .

ومما تقدم نخلص إلى نتيجة مفادها أن تدريس العلوم العقلية في الجامعة يستهدف في أولوياته بناء شخصية الطالب العلمية والاجتماعية عن طريق تأصيل العلوم العقلية في الدرس الأكاديمي وصولاً إلى إعادة تأهيل الطالب لكي يقوم بالدور الاجتماعي الذي يوكل إليه بعد إكماله الدراسة الجامعية على أحسن وجه ، وتنعكس هذه الفلسفة العقلية العلمية في التدريس والتعليم الجامعي القائم على الاستدلال الاستقرائي[٤٩] ، وصولاً إلى الحقائق التي تطبق في واقع الحياة من اجل تقدمها[٥٠] ، وعند ذاك نستطيع تأصيل العلوم العقلية ورسم خارطة طريق لتدريس العلوم العقلية في الجامعات العراقية .

٣ ـ دور الأستاذ في عقلنة الدرس وإعادة تأهيل الطالب

من المسلمات المعرفية أن العملية التعليمية في الجامعة لا يمكن أن تتم في فراغ ، فلا بد لاستكمالها من وجود الطالب ، والأستاذ الذي يمتلك المواهب والخبرات العلمية، وصولاً إلى بناء عقلية المتلقي ولكي نؤسس لهذه الأفكار والطموحات والأهداف نحتاج أولاً إلى الأستاذ الجامعي المتنور الذي يضع العقل والتفكير العقلاني ضمن سلم أولوياته الفكرية ليكون قدوة في اكتساب المهارات المعرفية ، وزرع الثقة في نفس الطالب عندما يجد أن الأستاذ ينهج في حياته العلمية نهج العقلانية والنظر إلى الحياة وما فيها من أسئلة تتطلب الإجابة .

أما إذا كان الأستاذ لا يؤمن بنسق التفكير العقلي سواء في رؤيته للحياة أو التدريس في الجامعة ، فإن ذلك سينعكس على تفكير وسلوك الطالب وعلى التعليم الجامعي ، والنتيجة شمول المجتمع بأسره بهذا النمط من التفكير .

تذهب أغلب الدراسات الاجتماعية التي تتصدى لموضوع التدريس في الجامع ، إلى القول : ((أنه عملية تفاعل بين الفرد المتعلم وبيئته المادية والاجتماعية ، وأن التعليم الحق هو الذي يكون وثيق الصلة بحياة السكان ومشكلاتهم وحاجاتهم وآمالهم وأن الهدف الأول للتعليم العالي هو تطوير المجتمع والنهوض به إلى مستوى معرفي واقتصادي وصحي واجتماعي وثقافي أفضل))[٥١] . ومن هذا المنطلق يتحدد أسلوب التعليم الجامعي ويتحدد أيضاً دور الأستاذ فيه ، فيكون عن طريق عقلنة الأفكار في التدريس ، وهذا يعني استخدام العقل في جميع مفاصل العملية التعليمية الجامعية ، بدءاً من الحوار والنقاش والمناظرة وصولاً إلى العلاقة بين الأستاذ الطالب ، وهذا كله يتم بروح من العمل والنشاط والمثابرة في مواجهة المشكلات اليومية والبعيدة المدى مواجهة صريحة ، أي بالاستدلال والتفكير العقلي الواقعي المباشر[٥٢].

إن الطاقات الفكرية الكامنة عند الأستاذ الجامعي لو استخدمت بالتدريس الجامعي وفق منهج عقلي ، فإنها قادرة على إحداث ثورة وتغيير اجتماعي على مستوى الطالب والمجتمع الذي ينتمي إليه ،وهذا يستدعي من الأستاذ أن يقترن عمله بمزيد من التعقل والتفلسف في الفكر والسلوك والتدريس ، وعلى هذا نحن بحاجة إلى الأستاذ الذي ينظر بعقلانية إلى الحياة وما فيها من مشكلات ، دون تحديد هذه المعضلات ، سواءً أكانت اقتصادية أم اجتماعية أو سياسية أو تربوية أو تعليمية ، نظرة عقلية واسعة شاملة ، بعيداً عن الانغلاق والتطرف وسيادة الأهواء الدينية والمذهبية وفي كل هذا نحتاج أن نسلط مزيد من الأضواء المحللة الناقدة بروح من العقلانية على قيمنا التي تحدد العلاقة بين أقطاب العملية التعليمية في الجامعة .

ولكي نقوم بإعداد الأستاذ الجامعي لهذه المهمة الحساسة يجدر بنا القول ، أن المنهج التعليمي لأي مجتمع من المجتمعات ، ما هو إلا إنعاس للحركة الاجتماعية فيه ، كما أن

وراءه اتجاهاً فكرياً معيناً ، وهذا الفكر عادة ما يتضمن طبيعة المجتمع وثقافته ، وطبيعة البشر فيه ، وبقدر ثراء الفكر وحيويته عند الأستاذ يكون تأثيره في الحركة الفكرية والسلوكية عند الطالب(٥٣) ، وكلما كان فكر الأستاذ مبنياً على سلم المعرفة العقلانية كان أثره واضحاً ومباشراً ، وهكذا يكون دور الأستاذ في خلق نقلة فكرية عند طلابه واضحة للعيان ، ومن هنا كان دوره فعالاً في التعليم الجامعي مما يعطي فرصة لتطوير وعقلنة التدريس الجامعي ، وإعادة تأهيل الطالب قي الوسط الجامعي والمجتمع بصورة أوسع .

إن كل جهد عقلي بشري ، إنما نجم وترعرع وتطور ، لأنه ينطوي على استجابة لطائفة من النوازع المركبة في طبيعة الإنسان ، وحاجات المجتمع للعلم نظرياً وعملياً في كل ما يمت بسبب إلى حاجات الإنسان فرداً وجماعة ، من أجل توفير وسائل العيش الكريم وتيسير الأسباب لمجتمع ماضٍ في طريق النماء والتطور والبناء الحضاري(٥٤) .

لا شك في أن الأستاذ الناجح هو الذي يعمل على إعادة تكوين مفاهيم وقوانين عقلانية لدي الطالب ، وهو إذ يفعل ذلك إنما يفعله تمهيداً لتشكيل مفاهيم جديدة أخرى ، ضمن منظومة متكاملة من النظريات العلمية المعرفية العقلية(٥٥) ، ومن ثم يدخل ضمن نظام منطقي محدد يلتحم فيه المفهوم العقلي بمنظومة البحث والتعليم في الجامعة ، لأن نظام المفاهيم هذا هو الذي يؤلف منطق التعليم ثم تظهر مهمة الأستاذ في صياغة المادية الدراسية على هدى من المنطق والعقل .

من هنا ذهب الدكتور جبرائيل بشارة إلى تأكيد دور الأستاذ في صياغة نظرية علمية معرفية منطقية عقلية وإيصالها إلى الطالب بالقول : ((أن ترتيب المعارف في نظام معين لا يقتصر على ربط الحقائق والمفاهيم التي تعود إلى هذه المادة أو تلك ، وإنما يتضمن نظاماً منطقياً يؤمّن العلاقة الوثيقة والحركة والمرونة لتلك الحقائق والمفاهيم التي استوعبت في هذه المادة الدراسية))(٥٦) .

إن الأستاذ الناجح في التعليم هو من يلجأ في حل الألغاز وتفسير الوقائع بأسلوب المناقشة العقلية التي تتخذ من موضوع الدرس ـ أياً كان نوعه ـ بحيث نرفع من نشاط الطالب وتدفعه إلى التفكير والمحاكاة ، وصولاً إلى استنتاج بعض الفرضيات العلمية بواسطة العقل ،

والأستاذ الناجح هو الذي يغرس في نفوس الطلاب روح التفكير المشترك حول تلك المفاهيم المتبادلة بين ظواهر الطبيعة وينمي عندهم النظرة العلمية ـ العقلية حولها[٥٧] .

إن ترتيب المعارف وفق نظام عقلي معين ، لا يقتصر على ربط الحقائق والمفاهيم التي تعود إلى المادة الدراسية بل يتضمن نظاماً عقلياً منطقياً يؤمن العلاقة الوثيقة والحركة والمرونة لتلك الحقائق والمفاهيم[٥٨]، ومن ثم معرفة حركتها الديناميكية ، مما يعطيه القدرة على محاكاة عقول الطلبة ويساعدهم على حل جميع المشكلات المطروحة أمامهم من دون تدخل الآخرين ، وبهذا الشكل تحقق الطريقة التعليمية أهدافها في تأصيل العلوم العقلية في الدرس الجامعي وإعادة تأهيل الطالب وفق الأهداف والشروط المبتغاة من التعليم في الجامعة .

وبناء على ما تقدم يمكن القول ، أن من أهم الخصائص المعرفية والتعليمية عند الأستاذ الجامعي ، هو اعتماده المنهج العقلي في نقل النظريات والمعارف والعلوم والفرضيات إلى المتلقي ، وهذا يتحقق عندما يدرك الحدود المقيدة لآرائه وافتراضاته المتعلقة بأساليب البحث ، وعند ذاك يستطيع أن يصل إلى المستوى المطلوب من التفكير والمرونة التي يستدعيها حل المشكلات العلمية .

إن التدريب والممارسة العقلية لفهم الدرس في الجامعة هو بالدرجة الأساس وظيفة الأستاذ في الجامعة لأن طبيعة العلوم العقلية ينبغي أن يكون لها هدف ومضمون معين ، وأن يكون لها ترتيبٌ هرميٌ لدراسة الموضوعات التي تشغلها ، وان يكون الهدف الرئيس من دراستها هو التدريب العقلي ، ولاسيما إذا علمنا أن التدريب العقلي هو فعل أكاديمي ، يتضمن من بين أشياء كثيرة منها ، القدرة على حل المشكلات المعرفية التي تواجه الطالب[٥٩] .

إن التعليم عملية تفاعلية بين المتعلم والمعلم من جهة ، وبين البيئة التعليمية من جهة أخرى ، وإن الطريقة في التعليم سلسلة فعاليات تضم الأستاذ والطالب ومحتوى المادة التعليمية[٦٠] ، ومن هذا المنطلق كان للأستاذ في الجامعة دور مهمٌ في ترسيخ العلوم العقلية والمعارف العامة لدى الطالب .

ولما كان للأستاذ هذا الدور الفعال والحيوي في إعداد الكفاءات البشرية للمجتمع في التخصصات المختلفة في البحث العلمي الذي يسهم في تطوير وبناء المجتمع ، وكذلك الإسهام في حل بعض المشكلات التي تواجه المجتمع ، فمن الضروري أن ينال الأستاذ من العناية بالقدر الذي يتناسب مع الدور الكبير الذي يقوم به[٦١] .

وأخيراً على الأستاذ الجامعي أن يتحلى ، بصفة جوهرية ، بالتفريق بين العمل في الجامعة ، وبين الكسب المادي ، لأن الكسب عند العالم هو النتيجة العلمية التي يصل إليها، والمنفعة عنده هي متعة العمل ، والإحساس أن في ذلك خدمة للإنسانية وللمعرفة وخدمة للمثل العليا[٦٢] .

٤- أثر المنهج الدراسي

يعد التعليم من أهم الوسائل وأكثرها حيوية في تطور المجتمع ، وهو محركٌ مهمٌ للتقدم في جوانب الحياة كافة لأنه يهئ الفرد للإنتاج اعتماداً على الخبرات المادية والفكرية التي يكتسبها ولاسيما في أثناء الدراسة الجامعية ، وهذا بطبيعة الحال ، يتطلب المنهج الدراسي الملائم لخلق وإيصال العلوم والمعارف إلى المتلقي ، ومن ثم بلورة نظرية عقلانية في التدريس ، تؤدي إلى إعادة تأهيل الطالب في الجامعة ، مما يتطلب منهجاً للدراسة ، يكون العقل هو الرائد والموجه له .

إن المنهج في التدريس الجامعي بمفهومه العام ، عبارة عن مجموعة من العلوم والمعارف والمفاهيم التي تعمل الجامعة على إيصالها للطلاب بهدف إعدادهم للحياة العلمية والعملية[٦٣]، وتنمية قدراتهم عن طريق الدرس والممارسات النظرية والعملية ، والمنهج في ظل هذه النظرة يتضمن المقررات الدراسية المختلفة التي يتم تدريسها في الجامعة[٦٤] ، دون الاقتصار على الجانب المعرفي والتركيز على المقررات الدراسية التي ربما يكون المنهج فيها تقليدياً ، من دون تفعيل التفكير العقلي[٦٥] .

وقد نقل لنا جبرائيل بشارة عن (ن .أ.سوركين) في كتابه فن التعليم تعريفه للمنهج : ((بأنه مجموعة من الخبرات التربوية والتعليمية والثقافية والاجتماعية والرياضية والفنية التي

تهيئها المؤسسة التعليمية بقصد تأمين النمو النفسي والعقلي الشامل في جميع النواحي وتعديل النشاط لدى الطالب طبقاً للأهداف المرسومة إلى أفضل ما تستطيعه قدراتهم))[٦٦]

وعلى هذا القول أصبحت مسؤولية المنهج تشكيل نموذج للتفكير عند المتلقي نتيجة استيعاب المعارف التي يتضمنها ، لذا توجب عند بنائه مراعاة البنية العقلية والمنطقية والعلمية ووسائل دراستها ، ومن ثم تشكيل الفعالية الفكرية وآلياتها من أجل معرفة تأثيرها في النشاط الذهني عند المتعلم[٦٧] .

وهنا يجب النظر إلى تأصيل العلوم العقلية عند بناء منهج للدراسة في الجامعة بحيث تعمل على تشكيل مستوى من التفكير عند الطالب أعلى من محتوى التعليم التقليدي ، لأن محتوى التعليم التقليدي ووسائله تجعل جل همهما تعليم الطالب أسس وقواعد التفكير التجريبي الذي لا يعد في الوقت الحاضر من الأساليب الفعالة للتدريس الجامعي[٦٨] .

إن من أهم الأوليات التي تضطلع الجامعة بها هي تأصيل فاعلية الدرس ، وهذا لا يأتي إلا عن طريق تطوير المناهج لتتوافق مع الرؤية التي تتبناها الجامعة من أجل عقلنة التعليم وإعادة تأهيل الطالب ، وذلك من خلال تأليف المناهج بما يتوافق مع هذا الطرح والتنظير ، وإعادة بنائها بما يمكنها من احتواء العلوم والمعارف العقلية بعيداً عن الجمود والتقوقع على مناهج طابعها التفكير الساذج ، لأن فهم العقل الإنساني واستثماره يعد من الأولويات التي يطلع بها التعليم في الجامعة[٦٩] .

وعلى هذا المعنى ، فإن تأصيل العلوم العقلية في الجامعة ، يعني عملية تربوية ونفسية وتعليمية ممنهجة وواعية موجهة بالدرجة الأساس نحو إحداث تغييرات في أسلوب تفكير الطالب ، والنتيجة المنطقية التي تترتب على ذلك هو عقلنة تدريس العلوم في الجامعة بقيمها وأبعادها واتجاهاتها ، في الحاضر والمستقبل ، لنقيم ذلك الارتباط بين المنهج العلمي والتفكير العقلي ، لنؤسس منهجاً أبرز سماته التفكير العقلي .

وبناءاً على ما تقدم يمكن القول أن كل جهد منظم لتطوير التعليم في الجامعة وتحسينه وجعله أكثر استجابة لمتطلبات الدرس وتطوير أفكار الطالب ، هو في حقيقته نوع من المنهج الدراسي المرسوم في الجامعة ، قائمٌ على التخطيط والشمول والتكامل[٧٠] ، من أجل ربط

خطط أو برامج ومشروعات التعليم بأهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية[٧١] ، ضمن إطار شامل متكامل يستهدف في النهاية رفع مستوى التفكير عند الطالب ، وذلك لإعادة تأهيل وتحسين مستواه العلمي، والنتيجة الحتمية لهذا العمل ، تنمية المجتمع بصورة أعم وأشمل .

من هنا يجب أن يتحول منهج التدريس في الجامعة ولاسيما في العلوم العقلية ، إلى تأصيل فاعلية التفكير لدى الطالب من أجل إعداده إعداداً عقلياً علمياً حتى يكون مسلحاً بالعلوم والمعارف التي تساعده على تلمس الجوانب العقلية في حياته الخاصة وعلاقته بالمجتمع الذي يحيط به[٧٢] .

ويمكن التسليم بحقيقة مفادها أن إشغال العقل وحرية التفكير يعد من الأولويات التي يجب الأخذ بها في صياغة المناهج التدريسية في الجامعة بغية بناء شخصية الطالب ذي التفكير العقلاني الحر ، ولأن المنهج الدراسي هو الأداة لتنشئة الطالب ومساعدته على تنمية قدراته واستعداداته ، من أجل إعداده لممارسة دوره الفعال للإسهام في بناء المجتمع ، وقد يتضمن المنهج المعارف الأساسية التي ينبغي أن تدرس في الجامعة ، أما دور الأستاذ فيتلخص بتنمية التفكير العقلي وما يرتبط به من استعدادات ومواهب عن طريق دراسة الموضوعات العقلية وتنمية التفكير العقلي لدى الطالب[٧٣] .

إن عملية تصميم المنهج الدراسي من الأولويات الضرورية لتدريس العلوم العقلية وذلك من أجل إعادة تأهيل الطالب بحيث يجعل نمو التفكير عند الطالب من جميع الجوانب هدفاً له ، وينظر إلى تأصيل الخبرات نظرة واسعة تجمع فيها المعرفة مع العمل مع الاهتمام بالجوانب الوجدانية للطلاب[٧٤] ، وهذا المنهج للتدريس الجامعي بمفهومه الواسع الذي اشتق من الوظيفة الأساسية للتعليم ألا وهي ، نمو المتعلم من جميع الجوانب العقلية والمهارية والوجدانية والاجتماعية والنفسية والروحية[٧٥] والعمل على تعديل سلوك الطالب وفق المعايير المرسومة للمنهج بحيث يجعل التعليم في الجامعة فرصة لتأصيل العقل والعلوم العقلية في الدرس ، والممارسة اليومية وصولاً إلى إعداد جيل قادرٍ على إحداث تغيرات

بعيدة المدى في البناء الحضاري للمجتمع ، فضلاً عن كونه استثماراً لأعلى ما لدى الأمم من موارد ألا وهي الموارد البشرية .

ولكل هذه الأسباب تواجه المؤسسات العلمية (الجامعات) مهام جديدة تأتي في مقدمتها قضية تطوير المناهج وإعادة صياغتها ، بما يمكنها من احتواء المعارف والعلوم العقلية ، وتخليصها من معارف بعيدة عن العقل ، تقادمت عليها السنون وتخطاها العصر ، وقد أصبحت هذه القضية ملحة يفرضها التطور السريع للعلوم والمعارف والتكنولوجيا(٧٦) .

ومن هنا يمكن القول أن تأصيل العقل في الدراسات الجامعية يشكل أهمية حيوية وإستراتيجية ، ذلك لأن ما أصاب المسلمين من تأخر وتخلف ونكبات واستعمار يعود بالدرجة الأساس إلى تحييد العقل والانكفاء على برامج تعليمية قديمة لا تتوافق مع العصر وتطور الحياة ، علاوة على سد باب الاجتهاد وعدم تفعيل العقل في قضايا البحث وفي مختلف شؤون الحياة الدينية والدنيوية ، والتمسك بالتقليد الأعمى الذي يفضي إلى الجمود والتحجر ، وأن السبيل الوحيد - حسب رأينا - للتخلص من الجهل والتخلف والإرهاق الفكري ، هو في تحرير العقول من الأحكام التي كانت مناسبة لعصر سابق ، ولم تعد صالحة ولا موافقة لهذا العصر ، وهنا يكون تحكيم العقل ضرورة تعليمية - دينية وبذلك نضع أقدامنا في الطريق الصحيح للنهضة والتطور .

الخاتمة

بعد أن أكملنا هذا البحث بعون من الله وتوفيقه ، لا بد لنا من أن نضع خاتمة نلخص فيها أبرز ما توصلنا إليه من نتائج ، وهي الآتي :-

أولاً:- إن التعليم الجامعي هو نتيجة لعملية مشتركة بين الأستاذ والجامعة والمنهج الدراسي ، وإن هذا التداخل الجدلي لا يمكن فك عراه ، لأن حلقاته واحدة تكمل الأخرى ، من هنا أصبحت الجامعة مكاناً لهذا التفاعل الحافز ، بين استصفاء العلم ونقله إلى عقول الطلاب من خلال البحث العلمي المنتج الذي يتطلع إلى تصحيح الخاطئ ، وكشف المجهول وتوسيع آفاق المعرفة .

ثانياً:- يجب النظر إلى تأصيل العلوم العقلية في الدراسات الجامعية بحيث تعمل على تشكيل مستوى من التفكير المنتج عند الطالب ، يكون أعلى من محتوى التعليم التقليدي القائم على السرد والإلقاء والآراء المبسترة والجاهزة .

ثالثاً:- إن الأستاذ يشغل دوراً فعالاً وحيوياً في إيصال الأفكار وتنمية قدرات الطالب ، لذا وجب إعداد التدريسي في الجامعة وفق البرامج المرسومة ليكون تدريسه وسيلة لإحداث تغيير في التفكير عند المتلقي ومن ثم عقلنة التعليم الجامعي ، وتأهيل الطالب لمواجهة المتغيرات التي تشمل الحياة بصورة أشمل ، أما المنهج فإنه هو الآخر يؤدي دوراً مهماً في صياغة وبلورة النظرية التعليمية في الجامعة .

رابعاً:- المنهج التدريسي يجب يتصف بالنظرة والناقدة ليصبح عقلياً في أحكامه ، عميقاً في تحليل طبيعة الحياة والمعارف الموجودة فيها ، بالنظر والتأمل والتفكير والتعليل لكل ما يهمنا في الكون والوجود .

خامساً:- في تدريس العلوم العقلية يجب تأكيد التوجه العلمي ـ العقلي وبه يتم الالتزام بمفردات العلم وحقائقه لأن الجامعة مؤسسة علمية غايتها رفع مستوى الحياة بجميع أشكالها من خلال غرس القيم العلمية في التفكير وعقلنتها .

سادساً:- من أجل التميز بين الأستاذ الموظف الذي يتخذ من التعليم مهنة يتكسب بها فقط ، والأستاذ صاحب الطموحات والآمال الذي يهدف إلى إحداث نقلة نوعية عند الطالب باستخدام التفكير العقلي لتفسير ما يحيط به ، لذا وجب على المؤسسات التعليمية أن تضع درجة معيارية للجودة والتقييم كي تميز بها بين الاثنين ويكون القائمون على الجودة أكفاء وجديين حتى تأتي نتائج التقييم دقيقة تظهر الجانب الإيجابي والسلبي .

سابعاً:- إن التعليم عملية استثمارية ، يستثمر فيها البشر ، وإن عائد هذا الاستثمار أضعاف أي استثمار آخر في عوامل الإنتاج الأخرى ، لذا وجب أن يكون هذا الاستثمار وفق المنهج العلمي العقلاني الخالص وهو ما يطلق عليه (أيدلوجية العلم) ، أي أن يكون العقل والتفكير العقلاني هو رائد العملية التعليمية ، بحيث يحل محل

الأيدلوجيات الأخرى ، الدينية والمذهبية والقومية المتعصبة التي لا تدر على التعليم إلا مزيداً من الانغلاق والتطرف الأعمى .

هوامش البحث

١ - سورة الرعد ، الآية ٣- ٤ .

٢ - سورة الغاشية ، الآية ١٧- ٢٠ .

٣ ـ عبد اللطيف حسين فرج : مفاهيم أساسية لطلاب الجامعة ، مكتبة السروات ، ط١ (الرياض / ١٩٨٣م) ص١٧ .

٤ ـ سورة الأعراف ، آية : ١٧٩ .

٥ - سعيد إسماعيل علي : دراسات في التربية والفلسفة ، عالم الكتب (القاهرة / ١٩٧٢م) ص٢٣.

٦ - برهان غليون:اغتيال العقل ، بحث منشور في مجلة الفكر العربي (مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية) العدد ٤١ ، آذار / ١٩٨٦م ، ص٣٢١ .

٧ - المرجع نفسه ، ص٣٢١ .

٨ - قيس ألنوري : الحضارة والشخصية ، دار الكتب للطباعة والنشر (الموصل / ١٩٨١م) ص١٠ .

٩ - هنري أيكن : عصر الأيدلوجيا ، ترجمة : محي الدين صبحي ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط٢ (بيروت /١٩٨٢م) ص٩ .

١٠ - محمد جلوب فرحان : بيئة الفكر الفلسفي الحديث ، منشورات مكتبة بسام (الموصل / د . ت) ص٥٣ .

١١ - المرجع السابق ، ص٦٠ .

١٢ - المرجع نفسه ، ص٦٠ .

١٣ـ المرجع نفسه ، ص٩٦ .

١٤ ـ المرجع نفسه ، ص٦٧ .

١٥ سورة الإسراء ، آية ٧٠ .

١٦ ـ جورج . ف . نيللر : في فلسفة التربية ، ترجمة : محمد منير مرسي وآخرون ، عالم الكتب (القاهرة /١٩٧٢م) ص٢٣ .

١٧ ـ المرجع نفسه ، ص٢٣ .

١٨ ـ تشارلس فرانكل : نظرات في التعليم الجامعي ، ترجمة : محمد توفيق رمزي ، دار المعرفة (القاهرة / ١٩٦٣م) ص٩٠ .

١٩ ـ المرجع نفسه ، ص٩٠ .

٢٠ ـ الرازي ، محمد بن زكريا : الطب الروحاني ، أهتم بنشره : مهدي محققي ، مؤسسة جاب وانتشارات (طهران / ١٣٨٤ هـ ش) ص٨١ ـ ٨٢ .

٢١ ـ المصدر نفسه ، ص٨٣ .

٢٢ ـ المصدر نفسه ، ص٨٢ .

٢٣ ـ سورة الرعد ، الآية : ٣ ـ ٤ .

٢٤ ـ قدري حافظ طوقان : مقام العقل عند العرب ، دار المعارف (القاهرة / د . ت) ص٣١ .

٢٥ ـ المرجع نفسه ، ص١١ .

٢٦ ـ عبد الكريم المراق : الإلهات عند الفارابي ، بحث منشور في كتاب الفارابي والحضارة الإنسانية ، مهرجان الفارابي (بغداد / ١٩٧٥م) ص٧١ .

٢٧ ـ الفارابي ، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان : كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة ، قدم له وعلق عليه : البير نصري نادر ، دار الشروق للطباعة ، ط٨ (بيروت /٢٠٠٢م) ص٢٥ .

٢٨ ـ قدري حافظ طوقان : المرجع السابق ، ص٧٨ .

٢٩ ـ المرجع نفسه ، ص٨٤ .

٣٠ ـ المصدر نفسه ، ص٢٥ .

٣١ ـ المصدر نفسه ، ص٢٦ .

٣٢ ـ هم جماعة تألفت بالعشرة والصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة ، والنصيحة والتعاون ، ظهروا في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ووضعوا لأنفسهم مذهباً أقاموه على البحث والنظر العقلي للوصول إلى الحق والحقيقة والكمال ، كانوا يجتمعون سراً ويتناولون في اجتماعاتهم البحوث الفلسفية والدينية والإلهية على اختلافها ، ويتذاكرون في العلوم والرياضيات والطبيعة على أنواعها ، وقد جعلوا علومهم وسيلة ، ومن فلسفتهم سبيلاً للنفع العام والخير المشترك (قدري حافظ طوقان : المرجع السابق ، ص٤٢) .

٣٣ ـ قدري حافظ طوقان : المرجع السابق ، ص٤٤ .
٣٤ ـ المرجع نفسه ، ص٤٥ .
٣٥ ـ محمود السيد سلطان : مسيرة الفكر التربوي عبر التاريخ ، دار ومكتبة الهلال (بيروت / ٢٠٠٨م) ص٩ .
٣٦ ـ سورة البقرة ، آية ٣٠ .
٣٧ ـ علي راشد : الجامعة والتدريس الجامعي ، دار ومكتبة الهلال (بيروت / ٢٠٠٧م) ص٧ .
٣٨ ـ المرجع نفسه ، ص٧ .
٣٩ ـ الرجع نفسه ، ص٢٣٦ .
٤٠ ـ محمود السيد سلطان : المرجع السابق ، ص٩ .
٤١ ـ جبرائيل بشارة : المنهج التعليمي ، دار الرائد العربي ، ط١ (بيروت / ١٩٨٣م) ص٥ .
٤٢ ـ خليل الجر وآخرون : تاريخ العلوم عند العرب ، مؤسسة الكتاب المدرسي ، ط٦ (طرابلس / ١٩٨٣م) ص٧٧ .
٤٣ ـ المرجع نفسه ، ص٧ .
٤٤ ـ إبراهيم عصمت مطاوع : التخطيط للتعليم العالي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط١ (القاهرة / ١٩٧٣م) ص٢٧ .
٤٥ ـ تشارلس فرانكل : المرجع السابق ، ص٦٤ .
٤٦ ـ المرجع نفسه ، ص٣٤ ـ ٣٥ ،
٤٧ ـ سعيد إسماعيل علي : المرجع السابق ، ص٦١ .
٤٨ ـ المرجع نفسه ، ص٦١ .
٤٩ ـ محمود السيد سلطان : المرجع السابق ، ص١٦٠ .
٥٠ ـ المرجع نفسه ، ص١٦٠ .
٥١ ـ إبراهيم عصمت مطاوع : المرجع السابق ، ص٥ .
٥٢ ـ المرجع نفسه ، ص٥ .
٥٣ ـ محمود السيد سلطان : المرجع السابق ، ص٩ .
٥٤ ـ تشارلس فرانكل : المرجع السابق ، ص٩٠ .

٥٥ ـ جبرائيل بشارة : المرجع السابق ، ص٨٠ .
٥٦ ـ المرجع نفسه ، ص٨٠ .
٥٧ ـ المرجع نفسه ، ص٨١ .
٥٨ ـ المرجع نفسه ، ص٨٠ .
٥٩ ـ جورج . ف . نيللر : المرجع السابق ، ص١١٨ ـ ١١٩ .
٦٠ ـ حسين إبراهيم عبد العال:فن التعليم عند بدر الدين بن جماعة ، مكتب التربية العربية لدول الخليج (الرياض / ١٩٨٥م) ص١٠ .
٦١ ـ علي راشد : المرجع السابق ، ص٤١ .
٦٢ ـ شيت نعمان : العمل العلمي ومؤسساته في البلدان المبتدئة ، دار الحرية للطباعة (بغداد / ١٩٧٨م) ص١٣٩ .
٦٣ ـ علي راشد : المرجع السابق ، ص٢٧١ .
٦٤ ـ المرجع نفسه ، ص٢٧١ .
٦٥ ـ المرجع نفسه ، ص٢٧١ .
٦٦ ـ المرجع نفسه ، ص١٢ .
٦٧ ـ جبرائيل بشارة المرجع السابق ، ص١٢ .
٦٨ ـ المرجع نفسه ، ص١٢ .
٦٩ ـ المرجع نفسه ، ص٧ .
٧٠ ـ إبراهيم عصمت مطاوع : المرجع السابق ، ص٢٧ .
٧١ ـ المرجع نفسه ، ص٢٧ .
٧٢ ـ شيت نعمان : المرجع السابق ، ص١٣٧ .
٧٣ ـ حسين إبراهيم عبد العال : المرجع السابق ، ص٧٥ .
٧٤ ـ علي راشد : المرجع السابق ، ص٢٧١ .
٧٥ ـ المرجع نفسه ، ص٢٧٢ .
٧٦ ـ جبرائيل بشارة : المرجع السابق ، ص٥ .